# التدافع القيمي بين الحضارات والأمم

## أزمة النظام الدولي المعاصر أم فرصة التغيير السانحة؟

أ/ دليلة عمارة

تتزاحم طروحات وأفكار - على نحو غير مسبوق - في جدالات الفكر العربي المعاصر حول حلول النهضة وسبل الخلاص من واقع التخلف والتبعية الذي يُغَيِّب دولا وإمكانات بشرية ومادية هائلة عن ساحة الفعل الحضاري، ويكرس تبعيتها لنموذج حضاري ما، ويجعلها رهينة رؤى قاصرة على أن تعيد هذه الكيانات إلى سابق عهدها بالتفرد والتميز والعطاء، ويغيبها عن ساحة المنافسة الأشد - التي تعلو على غيرها من أشكال التنافس - والتي هي السيادة على المستقبل. ولعل أكثرها شيوعا وشغلا للباحثين والدارسين تلك الأفكار الباحثة في سبل اللحاق بركب التقدم المادي للحضارة الغربية المعاصرة، طرح يمتد تاريخ تكريسه في سلسلة محاولات الخلاص والخروج من دوائر التخلف إلى البدايات الأولى من الإحتكاك التاريخي بحضارة الغرب المادية والتي توجت بموجة الحملات الإستعمارية التي عرفتها معظم دول المنطقة. ولنا وقفة هنا مع هذا الطرح، مع الظاهرة الإستعمارية ذاتها والتي قد يقع البعض بقصد أو عن غير قصد في حبائل مؤامراتها التي أهلتهم لأن يكونوا أمناء على إنفاذ حلقات السيطرة والإستغلال اللاحقة والممتدة، رغم عقود من زمن الإستقلال السياسي لمعظم هذه الأقطار. والسبب في ذاك هو قصور النظر في فهم وتقدير حقيقة الظاهرة الإستعمارية، والتي يجب النظر إليها باعتبارها ظاهرة كلية، بمعنى أن المشروع الإستعماري لم يكن تركيزه على جانب ما دون الآخر، ذلك أنه بقدر الأطماع والإستغلال والنهب لثروات ومُقدرات المستعمرات - الذي هو السمة الغالبة عليه - إلا أن جوانب الإستهداف لحضارة وقيم وثقافة هذه الدول ومحاولة إبادتها، ليست أقل تجليا من مظاهر الإستغلال المادي، بل إنها الأخطر والأعمق تأثيرا منها، لأنها هددت كيان وهوية وبقاء

هذه الدول والمجتمعات، بل وهو الأهم أنها عصفت بمستقبلها، فهاهي دول ومجتمعات في مهب الريح في صراع التراث والمعاصرة، الأصالة والحداثة، القيم والتغريب.. وغيرها من الثنائيات المتناقضة التي يقصم الواحد منها جهود التقدم والتطور، فما بالنا باجتماعها كلها..

على النقيض من هذا، طرح آخر يبدو قادرا على جلب المزيد من الإهتمام والتركيز في دوائر البحث والدراسة والتحليل.. ذلك هو الذي يجعل من مجال الدراسات الإنسانية مناط التغيير وإصلاح الواقع الحضاري لهذه الدول. وتحديدا تلك التي تعنى بمباحث القيم العليا في النماذج الحضارية المختلفة، ونعود ونقول إن مباحث التقدم المادي ومحاولة إدراك الفجوة القائمة بين الدول المتخلفة والغرب، أثبتت عجزها على أن تكون الحل لواقع التخلف الحضاري المكرس منذ قرون، بل إنه غير متاح وغير ممكن أصلا، فدوائر العجز والقصور الذاتية يضاف إليها إرادة تكريس التبعية والتخلف من الغرب، والتي تعمق وتؤكد وضع الإستغلال والتحكم في حاضر ومستقبل هذه الدول يؤكد ذلك. وعليه فإن مباحث القيم العليا في الحضارات والمجتمعات ودراسات العلوم الإنسانية عموما هي الأقدر على إحداث التغيير بكل تأكيد، والسبب بسيط على جوهريته، إنه قدرة القيم والدراسات المرتبطة بها على أن تخاطب الإنسان وتلامس حياته وتحدث التغيير في داخله والذي هو بؤرة التغيير ومواجهة كل التحديات مهما عظمت. ويؤكد هذا حقيقة الصراع القادم، والذي لن يكون إلا صراعا على أي القيم العليا ستكون قادرة على مخاطبة كيان الإنسان وروحه وجوهره، لتستحق السيادة على المستقبل.

**والبداية ستكون من** إعادة التشكل التي سادت المشهد الكوني بعد الحرب الباردة والتي لا تزال في بداياتها الأولى، وما يبدو على صعيد العلاقات الدولية اليوم ليس سوى مقدمة لتحولات أكثر عمقاً. إن ما نشهده اليوم هو بداية بنية عالمية جديدة للقوة ستشكل معايير السياسة الدولية على المدى المستقبلي المنظور. إننا أمام تحولات كبيرة في المعطيات الجيوستراتيجية على الصعيد الكوني، ويمكننا ملاحظة تحول بارز في مراكز الاهتمام الاستراتيجي لدى القوى الفاعلة في البيئة الدولية. وفي المشهد الجديد، هناك دول ومناطق إرتفعت مكانتها الجيوسياسية، فيما تقلصت هذه المكانة في بقاع عديدة من العالم.

فقد تبدل المشهد الدولي إذن، غير أن الرهانات الأساسية التي تواجهها قوى وعناصر البيئة الدولية ظلّت على ما كانت عليه فيما يتعلق بمسائل الأمن والبحث عن السلام، فضلا عن المقاربات المتعلقة بالهوية.

والسؤال الآن هو: كيف ستتم عملية تمفصل وتفاعل هذه الرهانات ضمن إعادة الصوغ الجديد للعالم؟

لقد ظهرت في السنوات الأخيرة مجموعة من الدراسات التي سعت لتحليل السياق الكلي للمتغير الدولي، محاولة طرح العديد من التساؤلات حول نظريات ومقولات إحتلت مكانها في الفكر السياسي الدولي خلال العقود الماضية، وبدت لدارسي العلاقات الدولية كمسلّمات لا نقاش فيها.

أما عالم ما بعد الحرب الباردة، الذي لا زال في طور التشكل، فهو عالم مختلف إلى حد كبير، مختلف في شكله البنيوي ونسق تفاعلاته ومضمون المقولات التي يبشر بها. والأهم من ذلك هو عالم محاط بثورة تكنولوجية أثرت بعمق في منظومة القيم الاجتماعية وشكل الاقتصاد الدولي وقدرة الأمم على التخاطب والتواصل.

ولأجل هذا وفي مجتمع المعرفة، عصر الذرة وتكنولوجيا الإعلام والإتصال، إعتقد البعض أن الدراسات الحضارية والتاريخية والأنتروبولوجية، مجالات علمية قد أصبحت من الماضي. إلا أن التحولات السياسية، والكتابات الفكرية والإستراتيجية، كحوار وصراع الحضارات، ونهاية التاريخ، أحيت الإهتمام بموضوع الحضارة، بل أصبح من أهم إهتمامات المفكرين والقراء.

فالعالم يعرف تفاعلات حضارية، إختلف الباحثون الإجتماعيون والفلاسفة في الإتفاق على مفهوم واحد للدلالة عليها. وهكذا نجد مجموعة من المفاهيم المتداولة، كحوار الحضارات وصراع الحضارات وتدافع الحضارات، وهي إختلافات ذات إنعكاسات على المفهوم وتداعياته، وهو ما يجب إلقاء الضوء عليه وتعميقه[1]:

## نهاية التاريخ:

يقوم جوهر مقولات نهاية التاريخ، التي نادي بها فرانسيس فوكوياما، على أن الديمقراطية الليبرالية... تشكل منتهى التطور الأيديولوجي للإنسانية، والشكل النهائي لأي حكم إنساني، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، مما يعني نهاية التاريخ بتحقق الانتصار الشامل للنموذج الحضاري الغربي "كخيار وحيد لمستقبل الإنسانية"، إذ سوف لا يبقى في نهاية التاريخ أي منافس حقيقي للديمقراطية الليبرالية .

## صدام الحضارات:

يقوم جوهر هذه النظرية، كما أسس لها المفكر الأمريكي صمويل هنتنجتون، على أن الصراع العالمي هو صراع ثقافات وأديان وليس مصالح، وتفسير تقدم الدول وتأخرها بحسب الحالة الثقافية والانتماء الديني .وقد وضع هنتنجتون تصوراته للعالم فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة على أن "الثقافة "تشكل

مصدراً للصراعات الرئيسية بين البشر وتحل "ظاهرة الصدام الحضاري" محل "الحرب الباردة" التى كانت بين معسكرين مختلفين فى نظمهما الاقتصادية والسياسية.

ووفق خط الانقسام، يري أن النزاع بين الحضارتين الغربية والإسلامية مستمر منذ 1300 سنة وإلى الآن، ويؤكد على استمرار الصراع مدعوماً بالاختلاف العرقي والاثني، وأن كل ما هو غير غربي سيكون فى جانب وفى مواجهة الغرب رافعاً مقولة "الغرب ضد الباقي "The West & The Rest"، والحضارتين الوحيدتين اللتين ميزهما هنتنتجون على أساس ديني هما: "الأرثوذكسية والإسلام"، وقال أنهما سيظلان فى الحالة الصراعية مع الغرب، حيث أنه بالرغم من إطلاق مقولة "الغرب والآخرون" مما يوحي بأن كل الآخرين معاً، إلا أنه يعيد طرح إمكانية أن يكون البعض من الآخرين مع الغرب إذا أرادوا أن يكونوا غير غربيين، وفى الوقت نفسه غير متاح هذا التحول للإسلام والأرثوذكسية.

**النظام العالمي الجديد:**

1. **وجود نظام عالمي أحادي القطبية:** وذلك بعد انهيار نظام القطبية الثنائية التي حكمت العلاقات الدولية منذ الحرب العالمية الثانية، وعدم قدرة الاتحاد السوفيتي على تحمل عبء مكانته كقوة عظمى وحاجته إلى المساعدات المالية والتكنولوجية والاقتصادية.

2. **المنافسة الاقتصادية كمعيار كوني للقوة:** فصعود الدول وهبوطها يعكس تطور وزنها الاقتصادي على الصعيد العالمي، غير أن ثمة فارقاً زمنياً يفصل بين القوة الاقتصادية وبين ترجمتها الفعلية إلي قوة عسكرية ودولية.

وقد أصبحت المنافسة الاقتصادية والتبادل التجاري، وكذلك المنافسة التكنولوجية والعلمية والتجديد والابتكار، معايير جديدة للقوة ذات طابع كوني تفرض ضرورة التأقلم معها واستنبات الأطر السياسية التي تتلاءم مع فلسفتها وديناميتها.

3. **الطابع العالمي لبعض مشكلات المجتمع الدولي المعاصر:** حيث أدى التعقد والتداخل في البيئة الدولية المعاصرة، وتطور أشكال التنظيم الدولي واتساع مجالاته، إلى ظهور مجموعة من المشكلات ذات طبيعة كونية، أي تتعلق بمصير الجنس البشري، وليس ثمة حدود جغرافية لآثارها، مثل مكافحة التلوث والنفايات الذرية وحماية البيئة والكوارث النووية وتآكل طبقة الأوزون التي تحيط بالغلاف الجوي. وفي مواجهة هذه المشكلات ينمو وعي عالمي بضرورة تضافر الجهود الدولية لمواجهة آثارها الحالية والمستقبلية[2]...

رغم أن الثورة التكنولوجية لم توفر تنمية متوازنة بين الشمال المتطور، الذي يندفع يوميا أكثر فأكثر في عالم التكنولوجيا، وبين الجنوب الغارق في الفقر والحرمان والتخلف... وهو ما أدى إلى سوء توزيع بين الثروة المحصورة في بلدان الشمال والتزايد السكاني الهائل في بلدان الجنوب. والنتيجة أن النظام العالمي لا يمكن أن يستقر في ظل انفجار سكاني في جزء من العالم وانفجار تكنولوجي في جزئه الآخر...

فعلى صعيد العلاقات بين الشمال الغني والجنوب النامي والفقير، وبعد تراجع حدة التوتر بين الشرق والغرب، فقد نشأ ستار حديدي يفصل بين الشمال والجنوب، رغم المحاولات الشمالية لرأب الصدع من خلال المساعدات الإنسانية والثقافية والاقتصادية والحضارية.[3]

4. **تعدد العناصر الأساسية للتدفقات الثقافية العالمية:** كالتدفقات العرقية والتكنولوجية والمالية والإعلامية والأيديولوجية، وكذلك التدفقات المدينية والطبيعية الناتجة من خلال الانتشار العالمي للمعلومات والصور، والثقافات المعترف بها، والثقافات الفرعية، والمدعمة بالتدفقات الرأسمالية الدولية.

وهذه الاعتبارات وتلك التدفقات دفعت البعض لأن يطلق على العصر الحالي، عصر التغير العالمي الشامل، حيث يشمل كل جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وبروز "المجتمع العالمي" الذي يتشكل من قوي متعددة[4].

5. **العولمة:** انتشر استخدام مصطلح العولمة في كتابات سياسية واقتصادية عديدة (بعيدة عن الإنتاج الفكري العلمي الأكاديمي في البداية) في العقود الأخيرة، وذلك قبل أن يكتسب المصطلح دلالات استراتيجية وثقافية مهمة من خلال تطورات واقعية عديدة في العالم منذ أوائل التسعينات.

ويُستخدم مفهوم العولمة لوصف كل العمليات التي بها تكتسب العلاقات الاجتماعية نوعًا من عدم الفصل (سقوط الحدود) وتلاشي المسافة؛ حيث تجري الحياة في العالم كمكان واحد - قرية واحدة صغيرة - ومن ثم فالعلاقات الاجتماعية التي لا تحصى عددًا أصبحت أكثر اتصالاً وأكثر تنظيمًا على أساس تزايد سرعة ومعدل تفاعل البشر وتأثرهم ببعضهم البعض[5].

والمفهوم الغربي للعولمة مفهوم إقتصادي إستعماري بالدرجة الأولى (تحول العالم إلى منظومة من العلاقات الاقتصادية المتشابكة حيث تتبادل كل أجزاء العالم الاعتماد على بعضها البعض فيما يتعلق بكل من: الخامات والسلع المصنعة والأسواق ورؤوس الأموال والعمالة والخبرة الفنية). ثم إن العولمة في

ظاهرها النظري البراق تتعامل مع العالم الإنساني الفسيح على الكرة الأرضية وكأنه قرية واحدة غير مترامية الأطراف، الأحداث بها متصلة والحقائق مترابطة، والإنسانية فيها متداخلة وكأنها واحدة، والقيم الإنسانية والاقتصادية والسياسية متسامية، لا انفصال بين بني الإنسان ولا انفصام بينهم، قربت المسافات واختزلت الأزمنة، وكأنه تحقيق للوجود الإنساني في اللامكان واللازمان[6].

ومما يميز العلاقات الدولية في إطار العولمة هو القناعة بأن التفاعل المتبادل والتأثير والتأثر واسع النطاق بين أرجاء العالم إنما يتم ليس نتيجة التطور التراكمي في عوالم هيكلية فقط، ولكن كذلك تحت قيادة وإدارة نموذج حضاري واحد وبفاعلية قيادة قوة واحدة من قوى هذا النموذج (ممثلة في الولايات المتحدة).

كذلك يمكن القول أن صعود الأبعاد الاجتماعية الثقافية في تحليل العولمة إلى جانب الأبعاد السياسية والاقتصادية، يمثل إضافة حقيقية في دراسة التغيرات العالمية خلال العقود الأخيرة. وكان لهذا الصعود عدة مدلولات، كما كان نتاج عدة تأثيرات، فهو يعني أن الاختلاف حول العولمة ليس حول تجليات العملية فقط بقدر ما هو أيضاً حول البعد القيمي لمضمون هذه التجليات وعواقبها، ولهذا فإن الجدال بين الاتجاهات الفكرية والنظرية المختلفة، قد اكتسب أبعاداً قيمية واضحة، أي أن عصر العولمة الراهن قد اقترن بإحياء البعد القيمي في الدراسات الدولية.[7]

وفي الواقع، فإنه على الرغم من ترحيب دعاة العولمة بزوال الحدود القومية ودعوتهم لإنهاء الدولة القومية، والحد من الإغراق في الخصوصية الثقافية والمحلية، لكن الواقع الحالي يثبت وجود قوتين متعارضتين: التوحد والتجزؤ.

فبينما يتجه الاقتصاد لمزيد من الوحدة على الصعيد الدولي، تخطو السياسة نحو المزيد من التفتت مع نمو الوعي العرقي والنزاعات الإثنية، في حين تتراوح الثقافة بين انتشار الثقافات الغربية في الحياة اليومية وبين إحياء الثقافات والتراث في أنحاء المعمورة.

ويرى بعض الباحثين أن الإشكالية في العلاقة بين العالمي والمحلي تتفاقم حين تحاول القوى العالمية الكبرى مثل: الولايات المتحدة أن تُعطي الطابع العالمي لما هو محلي لديها من أجل تحقيق مصالحها الخاصة. ويرجع انتشار هذا النموذج الأمريكي إلى امتلاك الولايات المتحدة لمنافذ إعلامية عديدة وعالمية.

ويطلق الباحثون على تلك العملية، "عولمة المصالح المحلية"، ومن المهم إدراك أن مفهوم "العولمة" يرتكز على عملية ثنائية الأبعاد: كونية الارتباط - ومحلية التركيز، وهذا

التضاد هو طبيعة كل واقع جديد، لذلك يصح أن نطلق عليها لفظ "العولمة المحلية"Globalization and localization[8]

مما سبق يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية:

1. إن هذه الرؤى الفكرية والسياسية التي يطرحها الغرب ظهرت متواكبة في توقيت واحد مع بداية التسعينات من القرن الماضي وبعد حرب الخليج الثانية.

2. إن كل الرؤى السابقة تسعى لتكريس هيمنة الغرب على دول الجنوب أو الشرق بشكل عام وعلى الدول الإسلامية بشكل خاص وإن اختلفت الأولويات في كل منها عن الأخرى، ففي حين تركز أطروحة صراع الحضارات على الصراع الحضاري فإن أطروحة نهاية التاريخ تعلي من شأن الصراع الأيديولوجي، بينما النظام العالمي الجديد في جوهره صراع عسكري وسياسي بالأساس وبينما العولمة في حقيقتها صراع إقتصادي وثقافي بالدرجة الأولى، أوجه متعددة لعملة واحدة تعكس هيمنة الغرب بشكل عام والولايات المتحدة بشكل خاص.[9]

ونعود إلى أهم المفاهيم المستعملة للدّلالة على التدافع، أو الحوار، وإلى أهم الآليات المعتمدة في هذا التدافع.

## مفهوم الحضارة وأهميتها:

إن الحضارة مفهوم معقّد ومتشابك، فهي شخصية الأمة، بماضيها وثقافتها وقيمها المادية والأخلاقية، بعقيدتها وممارساتها السياسية، ومهاراتها الإنتاجية وأساليب تنظيمها. فهي تشمل كلا من التراث الأدبي والعلمي للأمة، وقوتها العسكرية والإقتصادية والسياسية. هي اللغة والأخلاق وطرائق المعاملات الإجتماعية السائدة، هي إرث الماضي وتفاعلات الحاضر وآفاق المستقبل. هي أحزان ومعاناة ومشاكل وصعوبات وانهزامات، كما أنها انتصارات وأفراح وآمال وطموحات تسعى الأمم إلى تحقيقها.

ولأهمية الحضارة، فهي تحمل شروط استقلال الأمم واستقرارها وبقائها وتطورها وتفاعلها مع محيطها العالمي، في عصر الصراع والمنافسة والمواجهات.

كما أن انحطاط الحضارة، قد يؤدي إلى الوقوع تحت الإحتلال والتبعية، ويؤدي إلى التخلف وانتشار الآفات الإجتماعية، وما يترتب عن ذلك من صعوبات وذلّ وهوان.

كلّ ذلك يضع من حضارة الأمة ومقوماتها مجالا إستراتيجيا، يجب دراسته والعناية به ومنحه حقه من الأهمية.

## أشكال التفاعل الحضاري:

تطلق على موضوع التفاعل الحضاري مجموعة من المفاهيم، من طرف مختلف

الكتاب والمؤلفين والفلاسفة، وذلك باختلاف اتجاهاتهم ومشاربهم الفكرية. وهو ما جعل الإختلاف المطروح موضوعا فكريا وفلسفيا يمكن معالجته والتطرق له من خلال الحوار، وبالتالي هل يمكن استعمال مفهوم "حوار الحضارات". أم هو موضوع صراع وتطاحن وحروب، تجاوز مرحلة الحوار وبالتالي وجب استعمال مفهوم الصراع والتعامل معه كما هو، أم أن الأمر يتطلب مفاهيم جديدة مستحدثة، وهي جوانب في حاجة إلى توضيح.

1. **صراع الحضارات:** يرى بعض الباحثين وجود صراع بين الحضارات، ويعتبرون ذلك أقرب إلى الواقع المعاش، بالنظر إلى ما يعرفه العالم من أحداث، تؤكدها الممارسات السياسية لا سيما في الولايات المتحدة، تحت قيادة المحافظين الجدد، وحربها ضد الإرهاب، وممارساتها في أفغانستان والعراق، ومظاهر الهيمنة السياسية والاقتصادية والإعلامية والتربوية والثقافية، كما هو باد للعيان. وهو ما تركز عليه الفلسفة الأمريكية، كما تبرزها كتابات فوكوياما، والممارسات السياسية والإقتصادية والعسكرية للولايات المتحدة الأمريكية.

2. **حوار الحضارات:** وهي نظرية يعتنقها الضعفاء إذ يخادعون أنفسهم، وهم يتوهمون أن المسألة بسيطة، يمكن حلّها عن طريق الحوار والإقناع، يؤيدهم في ذلك بعض المفكرين الغربيين، وقد يكون ذلك عن حسن نية. وهكذا يحذر "برهان غليون" من انجرار المسلمين أمام فكرة صراع الحضارات، لأن ذلك قد يؤدي إلى حرب باردة، كما يرى، وهو يعتقد أن القضية تحتاج إلى حوار ليس إلا.

3. **تدافع الحضارات:** أصبح استعمال مصطلحي كلّ من حوار أو صراع الحضارات، مسخرا لخدمة أهداف محدّدة منذ البداية حسب مستعمليها. لذلك يمكن استعمال مفهوم التدافع الحضاري، لورود آيات كريمة في هذا الموضوع. قال الله تعالى: "... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهُدّمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز" (سورة الحج: 40). وقوله أيضا "... ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين" (سورة البقرة: 251).

والمفهوم واسع يشمل كلّ المعاني المطروحة، في الساحة الفكرية والسياسية والفلسفية. فهو إما تدافع محدود "خفيف"، وبالتالي فهو يعني الحوار والتعايش. كما تتم صراعات تدافعية، بمعنى صدام الحضارات، وقد يتم ذلك من خلال عمليات قوية ومفاجئة، وهو ما يعرف بالصدمة. وقد يتمّ التدافع العنيف، وهو صراع الحضارات، حيث يصل الأمر إلى صراع مسلح بين الأمم

والحضارات، وهو ما نشاهده اليوم في مختلف بقاع العالم.

إن المتفحص للواقع الحضاري وتفاعلاته، يجد كلّ مظاهر التدافع والتفاعل الحضاريين، فهناك الحوار وهناك الصدام، وهناك الصراع، وهناك الحرب الحضارية، وكلها موجودة. إلا أن وجود أحد المظاهر لا يلغي وجود الآخر، وأمريكا والغرب يستعملانها كلّها، لكنهما يميلان إلى استعمال القوة العسكرية، لتحقيق مآرب حضارية واقتصادية وسياسية. أما الحوار فيوظف لغرض ربح الوقت وخدمة أهداف إستراتيجية على المدى البعيد، أو تركه مجالا يتلهى ويتجادل فيه الفلاسفة والمفكرون المثاليون.

من هنا يتبين استمرارية التدافع الحضاري في مختلف صوره، وهو عبارة عن صيرورة دائمة وحيوية لا تعرف التوقف، وهو حالة طبيعية وأحد سنن الله في خلقه[10].

## تدافع الحضارات النموذج الإسلامي:

"ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل علي العالمين" آية 251 (سورة البقرة) يشير صاحب الظلال يرحمه الله إلى أن ساحة الحياة المترامية الأطراف تموج بالناس في تدافع وتسابق وزحام إلى الغايات ومن ورائها جميعا تلك اليد الحكيمة المدبرة تمسك بالخيوط جميعا وتقود الموكب المتزاحم المتصارع المتسابق إلى الخير والصلاح والنماء في نهاية المطاف لقد كانت الحياة كلها تأسن وتتعفن لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض ولولا أن طبيعة الناس التي فطرهم الله عليها أن تتعارض مصالحهم واتجاهاتهم الظاهرية القريبة لتنطلق الطاقات كلها تتزاحم وتتغالب وتتدافع فتنفض عنها الكسل والخمول مستنبطة لذخائر الأرض ومستخدمة قواها وأسرارها الدفينة وفي النهاية يكون الصلاح والخير والنماء فإن الله ذو فضل علي العالمين.

التدافع محكوم بيد الله وإلا لفنيت البشرية وانفجرت الأرض وإلا ما الذي أمسك تلك القوي المدمرة عن أن تستخدم أسلحتها النووية يقولون إنه الردع النووي ولكن هل يمنع الردع النووي انفعال عارض أو جنون كامن؟ إنها يد الله التي تحكم هذا الكون.

وفي الوقت الذي لا يحتمل فيه الصراع إلا معنى واحدا وهو القضاء على الآخر وفنائه فان التدافع يحتمل عدة معان وهو وسيلة للحيوية والحركة والنمو وانطلاق الطاقات وله صوره ودرجاته المتعددة بداية من الحوار ومرورا بالجدل والمناظرة والمنافسة والسباق والمواجهة والمغالبة وانتهاء بالصراع أو القتال وكما نرى فإن صور التدافع مشروعة كما أنها في نفس الوقت محكومة بضوابط من شرع الله وحتى الصراع أو القتال فقد كتب

على المسلم وهو كره له ولكنه محكوم أيضا بضوابط.

إن هانتجتون يكتب متسقا مع الحضارة الغربية لأنها كما قلنا لا تقبل بالتعايش مع الحضارات الأخرى بل وتحاول القضاء عليها أو تقهرها لتلحق بها في ركبها، القضية هي إذن كيف نغلب معايير التدافع أو التعايش على معايير الصراع؟!.

إن الحضارة الإسلامية كانت النموذج الفذ للتفاعل مع الحضارات السابقة لها لأنها حضارة رسالية وإنسانية لا تبغي القضاء على الآخر أو حتى إقصاءه، بل ذهبت الحضارة الإسلامية إلى أبعد من هذا إذ حافظت وتفاعلت مع الحضارات التي اندثرت قبل الإسلام ولم يجبر أحد حضارة الإسلام على ذلك.

الإسلام ليس ضد حضارة الآخر وفي قضية التدافع الحضاري يمكن أن نتفاعل ونتعايش مع حضارة الآخر نؤثر فيها ونتأثر بها ونتواصل معها، رغم أن الغرب بكل خصائصه ومقوماته وتاريخه لا يملك رسالة إنسانية تهدف لخير البشرية لأنه يرفض بتكوينه فلسفة المساواة والاحترام والعدل والندية واحترام خصوصية الأخر والإحساس بالمسئولية الدولية[11].

"إنّ البربري هو من لا يعترف بإنسانية الآخر»: هكذا تحدث كلود لفي ستراوس على مرض المركزية الإثنية مشيرا إلى أولئك الذين عند ملاقاتهم للآخر الذي لا يشبههم لا يرون في عاداته واختلافه إلا انحطاطا للإنساني ووحشية لا تليق بذاتهم "الشريفة"، وأن صفة الإنسانية توقفت مع حدودهم الجغرافية. ومثل هذه العقيدة تلغي قبليا كل إمكان لقاء إنساني يؤسس قيم إنسانية كونية تتجاوز كل خصوصية، مثل هذه العقيدة تنفي كل أمل في بناء تمثّل لإنساني يكون صالحا لكل الناس.

إن واقع الثقافات هو واقع التنوع والاختلاف فالإنسانية تتطور في ضروب متنوعة من المجتمعات والحضارات، وهو تنوع ليس مرتبطا بأي حتمية بيولوجية بل بواقع جيو- إجتماعي تاريخي. وهكذا فان ثقافة ما لا تستطيع أن تقيم ثقافة أخرى بما أن كل ثقافة تمثل طريقة معينة لحل مشاكل الإنسان فلا تمتلك أي ثقافة معايير مطلقة أو أدوات قياس تجعلها قادرة على الحكم على الثقافات الأخرى. فالثقافة هي الكل الذي يشمل العادات الفنية والعلمية والدينية والفلسفية وكل الأشكال المكتسبة لسلوك مجموعة أفراد، وما يميز الثقافة هو تنوعها بتنوع الشعوب وبالتالي تساويها في مستوى القيمة إذ أن بنية ثقافة ما تبقى نسبية. ومن منطق الاختلاف هذا قد يبدو أنه من المستحيل بالنسبة إلى ثقافة ما أن تتقدم كمالكة لمعايير مطلقة تفرض نفسها على كل ثقافة[12].

**التدافع الحضاري، حقيقته وتصنيفاته الواقعية:**

إن حقيقة التدافع في الرؤية الإسلامية، هي دفع الآخر وتحريكه من موقع العداوة والنزاع، إلى موقع التعاون والتفاعل مع مختلف الأنماط الحضارية والسعي للاستفادة منها، على اعتبار أن المحصلة الحضارية من كل هذه الحضارات، إنما هي إرث مشترك بين الإنسانية جميعًا، والنهل والاغتراف منها أمر مطلوب وواجب، لأن أمر الإفادة والاستفادة من نتاج الحضارات الأخرى بغية التقدم والرقي، يجعل الإنسان يستفيد من كل المسخرات الكونية، والإبداعات البشرية في ظل هذه المسخرات. إلا أنه إذا كان هذا التدافع كسبيل وحيد ومنهج رشيد في التعامل مع الآخر المتغاير، فإنه بات من الضروري الإشارة إلى أن التدافع ينقسم باعتبار القصد والمآل إلى قسمين اثنين: تدافع تناحري، وتدافع تعاوني:

التدافع التناحري، أو "التصارعي": هو ذلكم التدافع الذي يبتغي تحقيق المنفعة والمصلحة الخاصة لطرف دون الطرف الآخر، من الأطراف المتدافعة، والحرص على نحر وصرع الآخر والقضاء عليه وإزالته من ساحة الصراع.

أما التدافع التعاوني: فهو ذلكم التدافع الذي يروم دفع الآخر للعدول عن مواقفه المتعصبة والعدوانية عن الآخر المتمايز عنه، وإشراكه في تحقيق المصلحة والمنفعة العامة للنوع الإنساني على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم، فيربح جميع الأطراف المتدافعة، ويساهم الجميع في صنع مستقبل الجميع.

إن التدافع التناحري، والصراع العنيف الذي يحدث بين الأفراد والأمم الجماعات، ما هو إلا تجلي ومظهر يعبر عن "أفكار وتصورات متضاربة ومتغايرة، غالبًا ما تكون لها جذور وأصول في حضارات مختلفة البنيان، وإن علاج الأمر على هذا المستوى من شأنه أن يخدم السلم العالمي، والتعايش الدولي"، إذ إنه في أيام المحن والشدائد، وتزايد التحديات أمام الاجتماع الإنساني، يصبح التعاون قانون حياة الأفراد[13].

ويسوقنا هذا إلى الحديث عن التطورات التي شهدها العالم المعاصر وخاصة مع انتهاء الحرب الباردة، وسقوط المعسكر الشيوعي، الذي عرف بطبيعته الإلحادية وتغييبه للجانب الديني والقيمي، والتي كانت دافعاً لتصاعد التيارات الفكرية المنادية بإعادة الاعتبار للأبعاد الدينية والقيمية في دراسة العلاقات الدولية، وأصبح هناك ما يمكن أن نطلق عليه المنظور الديني في دراسة وتحليل العلاقات الدولية.

وقد ارتبط تحليل البعد الديني في مرحلة من مراحل تطور العلاقات الدولية، بدراسة

وتحليل القيم، حيث أشار عدد من الباحثين والمحللين إلي أن فكرة القيم فى العلاقات الدولية فى الأدبيات الغربية تتنازعها مدرستان:

**الأولى:** ترى أنه من العبث التمسك بقيم فى عالم السياسة الدولية الذي لا يعرف إلا المصلحة، وأن تمسك دولة بالأخلاق يعنى استسلامها فى موقف ما للطرف الآخر الذي لن يتبع نفس قواعد السلوك، وفي هذا الإطار يعتقد "مورجنثو " أن الأخلاق ضرورية في العلاقات الدولية ولكنه يناهض المبرر الأخلاقي للسياسة الدولية وهو ما يسميه بـ"أيديولوجية الأخلاق" أي أن المبادئ الأخلاقية تخفي وراءها المصالح الخاصة، كما يدين الإطلاقية الأخلاقية ويسميها "بالنزعة العاطفية" لأنها تغطي طبيعة السياسي وتركز فقط على القيمة الأخلاقية على حساب القيم الأخرى.

ويري أنه يمكن عن طريق توازن القوى، تحقيق النظام والاستقرار للجميع، وإيجاد حالة تخلو من صراعات مسلحة، أي أن الأمر يتطلب أخلاقية المسؤولية و"المصلحة العليا للدولة" أي للدولة ولمواطنيها .وعلى القادة أن يكونوا أخياراً إذا أمكن وأشراراً إذا استدعت الضرورة ذلك.

**الثانية:** وترى أن الحديث عن القيم لا يعنى تجاهل الواقع، بل ترشيده حتى لا ينغمس العاملون فى المجال السياسي فى الحسابات البراجماتية الوقتية متجاهلين السؤال الملح عند وضع السياسة الخارجية: من نحن؟ ماذا نريد أن نكون؟[14].

فمن مصلحة كل الأطراف في العالم نبذ العنف في علاقاتها، والخروج من حالة الفوضى التي تعم عالم اليوم، إلى حالة الانتظام والاتزان، والعمل على حسن توظيف الرصيد الثقافي المشترك في وضع أسس قوية للتعاون بين دول العالم، وإقامة جسور الحوار المثمر بين الأطراف لفتح المجال، لبناء تحالف حضاري، الشيء الذي سيشكل أقوى العوامل التي تمهد السبل للوصول إلى تحقيق المصالحة بين حضارات العالم، وتنقية الأجواء من التوترات والتشنجات والصراعات التي تفسد العلاقات بين الأطراف[15].

غير أن التركيز هنا سيكون على التدافع الذي يتم في الأساس على مستوى القيم الكونية العليا التي هي محرك التدافع في مختلف المجالات، بين مختلف النماذج الحضارية.

لقد أنتج عصر الحداثة كثيراً من الأساطير باسم العلم وباسم العقل. فتحولت تلك الأساطير إلى حقائق وبديهيات عند الغربيين وغير الغربيين من مثقفي العالم الثالث ذوي المشرب الحداثي. ونهضة أمتنا الإسلامية اليوم تفرض على مثقفيها

العضويين نقد ونقض تلك الأساطير. ليس نقض أساطير الأولين بل أساطير المحدثين. كنقض أسطورة الصدفة في الخلق وقيمها المادية ونقد أسطورة القنبلة الديمغرافية ومكرها، ونقد أسطورة قيم الغرب الكونية وسذاجتها، ونقض أسطورة الخط الغربي للتنمية وغفلتها، ونقض أسطورة الحرية الشهوانية ولاآدميتها، ونقض أسطورة العلمانية في البيئة الإسلامية وخبثها. وغيرها كثير. والنقض عملية مزدوجة، نقد فكري ورفض عملي[16].

فالقيم تعتبر مرتكزات أساسية تقوم عليها عملية التفاعل الإجتماعي، فهي تعتبر جانبا هاما من جوانب البنية الفوقية للمجتمع.

ولذلك، نجد أن مع كل تغيير في التركيب البنائي للمجتمع لا بد أن تتغير القيم لتواكب التركيب البنائي الجديد للمجتمع، وينشأ صراع قيمي بين القيم الجديدة أو المستهدفة من التغيير والقيم السائدة بالفعل في المجتمع.

وإذا نظرنا لجوهر القيم، فنجد أنها تتضمن عنصر الإنتقاء والتفضيل مما يجعلها تختلف من مجتمع لآخر، بل تختلف عند الشخص الواحد تبعا لرغباته واحتياجاته وتنشئته، وبذلك يتكون ترتيب هرمي للقيم مما يترتب على ذلك أن تتشكل بعض القيم من خلال القيمة العليا للمجتمع ومن خلال النسق القيمي للفرد والمجتمع.

وإذا كانت الثقافة في أحد مفاهيمها العامة هي: الرؤية الشاملة للحياة، فهي تتألف في ناحية من مجموعة القيم المستمرة والمستمدة من مصادر أربعة هي: الدين – الأدب – اللغة – البيئة، ومن ناحية أخرى، تتألف هذه القيم من مجموعة أفكار عامة مثل الحرية والوطنية والديمقراطية والعدالة والجمال والفضيلة، ولذلك تعتبر هذه القيم والأفكار بالغة التأثير في توجيه السلوك وفي رسم صورة مثلى لحياة الإنسان. إذن، فإنه كلما كان إلتزام المجتمع ومكوناته بقيم معينة أكبر، كلما كانت الروح الحضارية في ذلك المجتمع أرقى وأسمى، فالقيم هي قبل كل شيء: "علاقة تقوم بين الذات الإنسانية وبين الواقع وما به من موضوعات وأحداث".

إذن فأهمية دراسة القيم تنبع من جوهر القيم كنظرة تقويمية دائمة إلى الواقع والمحيط الإجتماعي العام الذي فيه يعيش الإنسان وتمارس الذات فاعليتها من خلاله، فالقيمة دائما وأبدا بحث متواصل عن المثل في الواقع، ومحاولة تشكيل أو إعادة تشكيل هذا الواقع وفقا للمثل التي تعبر عنها بالقيم، فالقيم تشمل باعثا على السلوك الخلاق كما أن القيم تنزع نحو المستقبل الدائم، فهي دائما واعدة إلى غد أفضل من

اليوم والأمس، كما أن الحضارة لا تقوم إلا على القيم والمثل قبل أي شيء آخر[17].

ونشير هنا إلى جملة ملاحظات:

1. أنه نظرًا للاختلافات الفكرية بين الباحثين المؤيدين لأهمية دور الدين (بأبعاده المختلفة ومنها القيم) فى العلاقات الدولية، فليس هناك تعريف مشترك لما هو أخلاقي كإطار عام للتحرك الدولي، أو حدًا أدنى من الاتفاق حول ماهية القيم التى يمكن أن تحكم العلاقات الدولية.

2. يثير البعد الديني في العلاقات الدولية قضية العلاقة بين الأخلاق الفردية والأخلاق الجماعية الدولية، وإمكانية قياس كل منها، وإثارة مشكلة القياس الجماعي والفردى ترتبط بغياب التنظيم الجماعي فى الثقافة المسيحية المستمدة من الدين المسيحي. أما الإسلام فقد نظم الاثنين كلاً على مستواه، وبالتالي لا توجد حاجة للقياس والخلط، فهناك الاثنان وكل منهما له قواعده.

3. إنه مع اعتراف البعض بأهمية القيم فى السياسة الخارجية إلا أنهم يؤكدون أنه لا توجد مبادئ مجردة وعالمية (إلا فى بعض الحالات الاستثنائية) تحكم السياسة الخارجية.

4. يرى بعض المؤيدين للاهتمام بالبعد الديني فى تحليل العلاقات الدولية أن الانتقال المنهجي يكون مما هو قائم إلى ما يجب أن يكون وليس العكس، فأخلاقية صانع القرار هي أخلاقية مسئوليةً وليست أخلاقية اقتناعاً، أى أن ما يقتنع أو يؤمن به السياسي يجب أن يخرج إلى حيز الواقع بعد مروره بحساب التكلفة، فما هو جيد فى الحسابات السياسية يرتبط بما هو ممكن[18].

## التعريف بالقيم:

تتنوع وتتعدد تعريفات القيم تبعا للإطار المرجعي الذي يخضع له الباحث، ولذا فإن هناك العديد من التعريفات الخاصة بالقيم والتي تنبع من إعتبارها موجهات السلوك أو العمل، ومعنى ذلك أن مجموعة القيم التي يعتنقها شخص من الأشخاص هي التي تحركه نحو العمل، وتدفعه إلى السلوك بطريقة خاصة، بل وتتخذ القيم مرجعا للحكم على السلوك سواء أكان مرغوبا فيه أو مرغوبا عنه[19].

فالقيم مجموعة من المعايير التي تحقق الإطمئنان للحاجات الإنسانية ويحكم عليها الناس بأنها حسنة، ويكافحون لتقديمها الأجيال القادمة ويحرصون على الإبقاء عليها. كما أن القيمة يمكن تعريفها بأنها فعل إجتماعي نمطي مقبول إجتماعيا وثابت نسبيا، ذو صفة معيارية في توجيه سلوك الأفراد والجماعات نحو إشباع حاجاتهم بطريقة جماعية[20].

وإذا كانت القيم تعرف أنها حزمة من المعتقدات والأخلاق المفضلة عند أمة ما أو حضارة أو ثقافة ما، ترسم معالم الطريق لسلوك الأفراد والجماعات والدول داخل الحوض الحضاري الواحد. إنها نمط العيش وأسلوب الحياة.فماذا نقصد بالكونية عند الحديث عن القيم؟ فإن أخذنا بمعيار الجغرافية فكونية القيم أنها معتقدات وأخلاق وأفكار عابرة للقارات والقوميات والطبقات على سطح كوكب الأرض. فالكون المقصود هنا هو كوكب الأرض وليس الكون بالمطلق. وإن أخذنا بمعيار التاريخ فإن المقصود بالقيم الكونية هو أسمى ما أنتجته البشرية من معتقدات إنسانية في تاريخها الممتد. وإن أخذنا بمعيار المضمون فإن كونية القيم تعني المعتقدات والأخلاق المشبعة كرامة وإنسانية. فالقيم الكونية مرادفة للفطرة الآدمية..[21]

وبالرغم من كل هذا الجدل المثار في الموضوع، على النحو الذي سبق بسطه، إلا أنه من الظواهر اللافتة للنظر في الفكر الأوروبي المعاصر، وبالتبعية في الفكر العربي، الإهتمام المتزايد بمسألة الأخلاق والقيم. فمنذ عقود والأصوات ترتفع، أصوات الفلاسفة والمفكرين والعلماء وبعض الساسة، لتطرح الناحية الخلقية والقيمية فيما يستجد على الساحة، سواء في ميدان العلم أو في ميدان السياسة والإجتماع والإقتصاد[22].

يعيش العالم اليوم إذن، على مشارف القرن الواحد والعشرين، وضعية جديدة تماما وحتى لا نقول فريدة غريبة، وتتمثل في هذا الإحراج بل التحدي المتزايد الذي يسببه العلم وتطبيقاته للأخلاق والضمير الأخلاقي، والذي أثار ويثير ردود فعل يمكن وصفها بـ"عودة الأخلاق"، ردود فعل تطالب بإخضاع العلم ومنتجاته للقيم والمعايير الأخلاقية، وذلك على العكس تماما مما كان عليه الحال منذ أكثر من قرن حينما سادت في أوروبا نزعات تنادي بتأسيس الأخلاق على العلم، طارحة مشكلة فلسفية قديمة - جديدة يعبر عنها بمشكلة "أساس الأخلاق"[23]...

## أثر القيم في بناء المجتمع والحضارة:

إن ذلك التفكك الذي عاناه، ويعانيه الإنسان الغربي على مستوى نفسه التي أرهقها الشرود عن الصراط المستقيم، كان لا بد أن ينعكس على جهاز المجتمع أو التنظيم الاجتماعي بالتهلهل والتحلل، حيث إن المجتمع لا يعدو أن يكون أشتاتا من الناس الذين لا تجمعهم وحدة، ولا ينتظم عقدهم خيط واحد، إن كل الأمراض والنواقض النفسية من انحلال وتهالك على الملذات المحرمة والحسد، وسوداوية النفس، تنتهي بخنق المجتمع وامتصاص طاقاته، ووقف تطلعاته نحو الأفضل.

وهكذا فإن النظرة المادية، قد فجرت في الإنسان طاقاته في إنتاج وتكديس المنتجات المادية، في نفس الوقت الذي ألقته في أتون التنافس المحموم على تلك المنتجات، فجعلت بعض الناس فريسة ونهبا لبعضهم الآخر، ينهشه بغير رحمة، ويحوله من شريك إلى أداة.

ونخلص من هذا الحديث إلى أن تلك الشروخ التي أحدثتها أمراض النفس في الكيان الاجتماعي، لن يظل أثرها محصورا في نطاق معين، بل إنها ستبتلع كل العناصر والمقومات التي تقوم عليها الحضارة. ولقد أجمع عقلاء الغرب على أن الذي سيذهب بالحضارة إلى حتفها هو العامل المادي، الذي هو أبعد ما يكون وحده كافيا لتفسير الوجود الإنساني، وتقويم نجاح المسيرة الإنسانية أو إخفاقها[24].

## مع التاريخ ورصيد الفطرة:

لقد كانت كلمة "إقرأ" الكلمة الأولى.. والقيمة العليا التي قادت حركة التاريخ الإسلامي الأولى نحو مسيرة العطاء الحضاري الخالدة.. أول كلمة في خطاب التكليف الرباني المعجز للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، فكان خطاب القراءة أول ما نزل من القرآن الكريم، الوحي المعجز الخاتم، آيات معدودات من سورة "العلق"، نزلت في جملة خطاب عام مختصر، لكن أيضا غاية في الوضوح والقوة، ليأتي تفصيل ذلك في السورة التي تلت سورة العلق في النزول وهي سورة "المزمل".

وليست القراءة إلا عنوان ومفتاح العطاءات التي تبنى عليها الأمم والحضارات، وتتحقق بها سعادة الدارين.

فلقد أشار جودت سعيد في كتابه "اقرأ وربك الأكرم" في معرض تفسيره للنص القرآني في سورة العلق (أن الذين ينالون كرم الرب وغناه هم القراء أو أكثر الناس قراءة في العالم.. فاليونان كانوا أكثر الناس قراءة وكتابة أيام حضارتهم.. وهم الذين نالوا كرم الرب وكرامته بين العالم، فقد سيطروا على أكبر رقعة في العالم.. والمسلمون انطلقوا من كلمة (إقرأ).. إنهم في عصرهم كانوا أقرأ الناس.. وإذا كان نظرنا حولنا في هذا العصر الذي نعيش فيه نجد أن الذين يتمتعون بخيرات العالم وينالون من الكرم والكرامة هم قراء هذا العصر..)[25]

وقد تضمنت السورة الكريمة أربعة معالم للدعوة، أربعة ركائز خالدة للرسالة الخالدة، وقيم عليا يمتد صلاحها ويقينية الإهتداء بأنوارها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها..

1. **العلم:** وهو العلم الذي لا يهمل شأنا في هذه الحياة، بل يطرق باب كل صلاح وخير في معاش البشر ومعادهم. من علوم الشرع والطب والتكنولوجيا.. دعوة هي الأولى :

كررها ملك الوحي الكريم عليه السلام على الرسول الكريم وعاودها مرات وأصر عليه، رغم أنه أمي ومن أمة أمية، "هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم".

لقد كان أول ما نزل من القرآن يعد في ذاته دعوة لقيمة إنسانية عليا هي القراءة وتلقي العلم الهادف لبناء الإنسانية.. لا العلم المدمر القاتل؟

إقرأ.. باسم من؟ باسم ربك؟ والربوبية عطف وتعاطف ورحمة، لذا نقول رب البيت ورب الأسرة.

ومن ربي؟ إنه الذي خلق... نعم الذي بنى وخلق... إنه التلميح البعيد... بل القريب... القريب جدا إلى أن القراءة والعلم يجب أن يرتبط بهدف إنساني نبيل هو "البناء والتشييد" لا الإستعلاء الكاذب... ولا الإهلاك والتخريب والتدمير. "فالمعرفة ينبغي أن تكون أساس تركيب الإنسان، وأول واجب علينا أن نجعل هذه المعرفة نافعة".

والدعوة إلى القراءة هي دعوة واضحة إلى تلقي العلم... وأكاد أرى أنها دعوة إلى ما هو أوسع وأرحب... إنها دعوة إلى "التحرك الديناميكي الناشط للبناء والإبداع إستجابة للداعي الذي خلق "خلق الإنسان من علق".

وكانت "العلمية الحركية الناشطة" من أعظم الأسس التي إعتمدت عليها القيم الإنسانية في الإسلام. وهذه الدعوة تمثل قاعدة إيمانية قوية عريضة "... فكل أمر.. كل حركة.. كل خطوة.. كل عمل باسم الله.. وعلى إسم الله.. باسم الله نبدأ.. وباسم الله نسير، وإليه المصير. والله هو الذي خلق وهو الذي علم، فمنه البدء والنشأة، ومنه التعليم والمعرفة، والإنسان يتعلم ما يتعلم، ويعلم ما يعلم، فمصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي علم.. "علم الإنسان ما لم يعلم".

وهذه الحقيقة القرآنية الأولى التي تلقاها قلب الرسول ﷺ في اللحظة الأولى هي التي ظلت تصرف شعوره وتصرف لسانه، وتصرف عمله واتجاهه بعد ذلك طيلة حياته بوصفها قاعده الإيمان الأولى.

وربانية المنبع القيمي لا تقيد حركة المسلم ولا تحد من إنطلاقه الفكري، ولكنها ترسم له الطريق، وتضع له المعالم حتى لا يضل ولا يطغى، ومن معالم هذا الطريق - خصوصا في مجال الفكر والبحث - الحرص على التبين قبل الحكم، وتحري الصدق في الرواية والصدق في التثبت والصدق في التفسير والصدق في التكييف مع توافر حسن النية في كل مسلك من المسالك، وكل مرحلة من المراحل. حتى إذا ما إجتهد الباحث وأصاب كان له أجران، وإذا ما إجتهد وأخطأ كان له أجر واحد.

وربانية "المنبع القيمي" هنا، أو بتعبير آخر: ربط القيمة الإنسانية العلمية الحركية

هنا بالمنبع العلوي وهو الله سبحانه وتعالى يكسب القيمة "سموا" من ناحية ويمنحها قوة ورسوخا من ناحية أخرى.

وبين (إقرأ باسم ربك الذي خلق) و(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا).

...بين هاتين الآيتين.. وعلى مدى ثلاثة وعشرين عاما هي مسيرة النبوة المحمدية الوضيئة. قرابة ربع قرن من الوحي والنور والهداية والتوجيه السديد في شتى المجالات.. قرابة ربع قرن من الإتصال الحي النابض بين الأرض والسماء تكون رصيد ضخم من القيم الإنسانية... إعتنقتها أمة فخرجت بها من الظلمات إلى النور... ومن الضعف إلى القوة.. ومن الذلة إلى العزة[26].

2. **حقيقة الطغيان:** "كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى": دعوة إلى الإستبصار وأخذ الحيطة والحذر من الغنى المفضي إلى الطغيان: وتحمل وقائع التاريخ دروسا وعبر عن صور الغنى التي أطغت أصحابها: غنى فرعون، طغيان قارون، طغيان القوى والحضارات الكبرى.. فكل غنى بدون عقيدة وقيم نبيلة وسامية مآله بلا ريب إلى سلوك الظلم والطغيان...

3. **معرفة الواقع معرفة دقيقة:** من خلال إستقصاء، إحصاء وجمع البيانات والمعلومات عن كافة الأطراف، المجتمعات والأمم والأفراد والجماعات.. ودراسة أحوالها وخصائصها.. "أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى" الطرف المعادي."أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى" بين الإنسان الذي هو على هدى ولكن يقصر هدايته على أداء مايطلب إليه وسلوك سبل الهداية بما يرتبط به وبحياته الخاصة دون أن يمتد أثر ذلك إلى المحيطين به. وبين المهتدي المجاهد الداعية إلى سبل الخير والهداية. ويلاحظ هنا أن كلمة رأى هي من الكلمات الوقفية، بمعنى ليست هناك كلمات يمكن أن تؤدي ذات المعنى بدلا عنها. وتحمل دلالة عن المشاهدة والملاحظة والإبصار بدقة..

"أرأيت إن كذب وتولى" فالتكذيب وعدم الإيمان لا يعني أن يكون في موقف المعاداة.. وهذا تأكيد على أن نبلغ في معرفة مختلف الأطراف وتحديد مواقفهم مبلغا نتجنب من خلاله أن نخاطب الجميع ونعاملهم دون تمييز، وهو ما من شأنه أن يجنب هدر الجهد والوقت والطاقة في غير محلها..

4. "**واسجد واقترب**": الزاد في كل ما قد سبق، في البدء والختام يجب أن يكون كبيرا، عقيدة وإيمانا، قيام ليل وصلاة وقربى: بالذكر، بالعمل، بالصدقة والدعوة إلى الله.. وبقدر ضخامة الرسالة وعظم الأمانة والتكليف بالبلاغ يكون مطلب التزود بالتقوى والصلاح اللازمين..وهو

المنطلق الذي جاءت بتفسيره وشرح معالمه سورة المزمل التي أعقبت سورة العلق نزولا...

لنصل بهذا إلى قيمة القيم، روحها وجوهرها وأطهرها وأقدسها وأجلها.. التي سينبع منها أي معنى للقيم في تدافعها وصراعها على المستقبل.

5. **التوحيد:** إن أعظم ما أهدته هذه الأمة للناس هو التوحيد، بكل ما يحمل من معان وقيم وأخلاقيات.. والمسلم المعاصر الذي تأثر بالغزو الفكري، وصار يستمد تقويمه لنفسه من نظرة أوروبا إليه، لن يحس بالقيمة الحقيقية للتوحيد وكونه أعظم هدية تهدى للناس، تهديهم على خير الدنيا والآخرة، وتضبط سلوكهم وفكرهم ومشاعرهم بالضوابط الصحيحة، فترفع الإنسان وتكرمه، وتضعه في وضعة اللائق بإعتباره (الخليفة) المكلف بعمارة الأرض. لقد كان للتوحيد أثره الواقعي في حياة المسلمين، وفي صنع الحركتين العلمية والحضارية.

لقد كان التوحيد في جوهره مشروعا حضاريا، قبل أن تخترقه المماحكات العقلية، بتأثير الفلسفة اليونانية، وظلالها المسيحية، فيغدو جدلا معلقا على الكتب العتيقة، وقبل أن تطمس ألقه أوهام الصوفية الغالبة وأهواؤها التي أحالته تواجدا وعشقا لا يكاد يقدر على إنجاز شيء.

إن هديتنا الأعظم إلى العالم من أجل أن نكون بحجم التحدي، هي التوحيد، بقدرته المدهشة على صياغة حضارة متميزة بين الحضارات[27].

والخلاصة من كل ما سبق، أن المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية، لا يزالان قائمين ما دامت قيم الإسلام قائمة.. وكلما ضعفت وتلاشت، كلما كان ذلك إيذانا بالإنحلال وانفكاك عرى المجتمع والحضارة... إن تمثُّل النظام القيمي الإسلامي يمكن أن نجمله في كلمة واحدة تجمل معانيه وتجسد غايته، وهي كلمة العبودية لله عز وجل، وإن لحظات الصعود "في التاريخ الإسلامي الطويل، كانت تبدأ مع ساعات الإحساس الكامل بهذه العبودية لله، وتحولها إلى حركة كاملة، تحكم الفرد المسلم والمجتمع المسلم، وإن حالات (الهبوط) فيه كانت تتزامن مع فقد الإحساس، ولو إلى حين"[28].

إن الانبعاث الحضاري المرجو يقودنا بالضرورة إلى قضية مستقبل العالم، والمشاركات الإسلامية المحتملة في المصير.

لا ريب في أن إنعكاس المبادئ والقيم الإسلامية على مساحات واسعة من النشاط الحضاري عبر التاريخ، منحه خصائصه النوعية المتميزة التي يمكن ان تمثل ليس مبرر إستمرار في العالم فحسب، بل قدرته

على على إقتحام وإغناء شبكة النشاط المعرفي للحضارة الراهنة، والقدرة الفعالة على الإسهام المستقبلي فيه.

وإذا كان هدف العقيدة تكوين الإنسان المؤمن المتبصر المتوازن السعيد، فإن النشاط الحضاري المنضبط بالرؤية الإيمانية يجيء إعانة على تحقيق هذا الهدف. ونحن نستطيع أن نتصور القيمة الحقيقية لنشاط كهذا بمجرد أن نتذكر ما الذي فعلته الحضارات اللادينية بالإنسان والجماعة البشرية.

وليس هذا مجال الحديث عن هذه المسألة وإنما التأشير عليها فحسب، فإن ما يعانيه الإنسان في البيئات الذي رفضت الإيمان، أو عزلته عن مجرى الحياة الواقعة، من تعاسة وإزدواج وتمزق وشقاء نفسي وروحي وعاطفي واجتماعي، رغم إرتفاع منحنيات الإنجاز المادي، أمر ملحوظ ينطق به واقع الحال هناك، وتؤكده شهادات المفكرين وإعلامهم، الذي يمكن للمرء أن يلتقي به صباح مساء في عصر التواصل السريع.

ثم إن هذا النشاط المنشق عن مطالب الإيمان إندفع باتجاه إغراءات القوة والتسلط ونداءات الأنانية العرقية والدولية والمذهبية ومضى أبعد من هذا باتجاه كل ما هو لا أخلاقي في السلوك البشري لكي يحول المنجزات والكشوف المعرفية إلى سلاح يشهر بوجه الإنسان وليس لصالح الإنسان.

إن الدلالة المعاصرة والمستقبلية لمعنى الحضارة الإسلامية، كما تحققت في التاريخ، تنكشف أكثر فأكثر بالمضي في متابعة الخصائص التي تميزها، والتي تعد بوضعها في حالة تقابل مع خصائص الحضارات الأخرى، والغربية الراهنة منهاعلى وجه الخصوص، إضافة، أو بعبارة أدق، تعديلا ضروريا لمسير هذه الحضارة لأنها قديرة على تقديم البدائل المناسبة لحالات الخطأ والجنوح التي تعاني منها[29].

**الهوامش:**

---

(1) مجدي قرقر، التدافع الحضاري بديلا عن الصراع،
http://www.alarabnews.com/alshaab/GIF/26-10-2001/MagdiQorqor.htm.

(2) سامي ريحانا، العالم في مطالع القرن 21، ج1، بيروت: دار نوبليس، الطبعة الأولى: 2009، ص79.

(3) المرجع نفسه، ص5، 6.

(4) عصام عبد الشافي، الدين في العلاقات الدولية ـ الثانية،
http://essamashafy.maktoobblog.com/819693

(5) عمرو عبد الكريم، مفهوم العولمة،
http://www.4shared.com/get/69374094/6f748898/__online.html

(6) مجدي قرقر، مرجع سبق ذكره.

(7) عصام عبد الشافي، الدين في العلاقات الدولية - الثانية، مرجع سبق ذكره.

(8) عمرو عبد الكريم، مرجع سبق ذكره.

(9) مجدي قرقر، مرجع سبق ذكره.

(10) بوفلجة غيات، التدافع الحضاري، http://www.asharqalarabi.org.uk/mu-sa1/b-mushacat-3149.htm.

(11) مجدي قرقر، مرجع سبق ذكره.

(12) إبراهيم قمودي، إلى أيّ مدى يمكن القول بأن ثقافة ما حاملة لقيم كونية؟ http://www.tunisia-sat.com/vb/showthread. php?t=215000.

(13) عبد الصمد الازدهار، التدافع التعاوني ومنطق التعمير الحضاري http://www.darululoom-deoband.com/arabic/magazine/tmp/1277810141fix4sub1file.htm.

(14) عصام عبد الشافي، الدين في العلاقات الدولية - الرابعة، http://essamashafy.maktoobblog.com/819758.

(15) عبد الصمد الازدهار، مرجع سبق ذكره.

(16) أمحمد طلابي، نقد أسطورة الخط الأوروبي الأوحد لنهضة الشعوب، http://www.maghress.com/attajdid/42800.

(17) اسماعيل عبد الفتاح، القيم السياسية في الإسلام، القاهرة: الدار الثقافية للنشر، الطبعة الأولى: 2001م، ص7، 9، 11.

(18) عصام عبد الشافي، الدين في العلاقات الدولية - الرابعة، مرجع سبق ذكره.

(19) اسماعيل عبد الفتاح مرجع سبق ذكره، ص12.

(20) المرجع نفسه، ص14، 15.

(21) امحمد طلابي، مرجع سبق ذكره.

(22) محمد عابر الجابري، قضايا في الفكر العربي المعاصر، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى: يونيو 1997م ص35.

(23) المرجع نفسه، ص37.

(24) عبد المجيد بن مسعود، القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، الدوحة: كتاب الأمة سلسلة دورية تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية قطر العدد 67، رمضان 1419هـ، السنة الثامنة عشر، ص 139- 141.

(25) جاسم محمد سلطان، من الصحوة إلى اليقظة، إستراتيجية الإدراك للحراك، المنصورة: مؤسسة أم القرى للترجمة والتوزيع، الطبعة الأولى: 2005م، ص130.

(26) جابر قميحة، المدخل إلى القيم الإسلامية، بيروت: دار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى: 1984م، ص11- 13.

(27) عماد الدين خليل، مدخل إلى الحضارة الإسلامية، بيروت: الدار العربية ء:

المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى: 2005، ص157.

(28) عبد المجيد بن مسعود مرجع سبق ذكره، ص135.

(29) عماد الدين خليل مرجع سبق ذكره، ص241، 242.